

الحكاية الشعبية العراقية بحث في الأصول الثقافية

زينب عبد الكريم حمزة الخفاجي
الجامعة المستنصرية / كلية الآداب

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد واله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ، الذي قص عن ربه أحسن القصص ، بأحسن البيان . سنتناول في هذا البحث الحكاية الشعبية العراقية وأصولها الثقافية ، حيث أنها بنية ثقافية لها أصول وتؤسس لثقافة معينة . الحكاية الشعبية نتاج فكري جميل ، أنتجته الشعوب عبر تاريخها الطويل ، وأودعت بها أروع قصصها ، وجل ما مرّ بها من أحداث وحكايات ، فجاءت لتعكس خلاصة تجاربها ، وتعطي صورة نابضة حية عن واقع الأمة عبر مراحل تاريخها الطويل ، تتجلى فيها حكمة الشعب وعصارة تجاربه وتفاعله في المراحل التاريخية التي عاشها ، وتعطي وصفاً لبعض الجوانب من الحياة الإنسانية ، والأحداث التاريخية والاجتماعية المختلفة ، وإظهار النواحي الفكرية والعقلية التي شهدتها البلاد في فترة من الفترات ، فتعيد لذاكرة الأبناء صورة من تاريخهم وتراثهم العريق بما عرفه من نبل وأصالة ، وتعيد إلى أذهانهم صورة آبائهم وأجدادهم ومواقفهم الحميدة وأعمالهم الخالدة ، التي يعتز بها كل محب لأرضه ووطنه وأهله وتاريخه . ولو لم تكن الحكايات تحتوي على مقومات البقاء لما استطاعت الصمود أمام تحديات العصور ، ووقفت بكل شموخ لتؤدي دورها الاجتماعي والفكري الذي من أجله أنشئت .

الحكاية الشعبية تعدّ جزءاً من موروثنا الشعبي وخلاصة إفرزات لتفاعلات الناس مع ظروف الحياة التي عاشها الإنسان . حيث كانت هذه الحكاية ، إحدى الدعائم المهمة في صقل شخصية الطفل ، فقد كانت كل قصة تهدف إلى قيمة يتم غرسها في نفوس الأبناء حتى يعدوا منهم رجالاً قادرين على تحمل المسؤولية ومواجهة ظروف الحياة المتغيرة وكذلك إعداد نساء يعتمد عليهن في بناء الأسرة المستقبلية ، ضمن التحديات الاجتماعية ، والاقتصادية المختلفة .

الحكاية الشعبية هي تلك التي تناقلها الناس عن طريق الرواية الشفوية منذ القدم ، ويؤثر الخيال الشعبي تأثيراً كبيراً في صياغتها ، وفي تطاير بعض الأحداث التاريخية والشخصيات ، بالمبالغة والغرائبية ، وتأتي الحكاية الخرافية في الإطار نفسه ، وإن تميزت من الحكايات الشعبية بأن أبطالها هم من البشر أو الجن ، بينما تقف الحكاية الشعبية عند حدود الحياة اليومية والأمور الدينية العادية ، كذلك كمكر النساء ومكائد زوجات الرجل الواحد ، وقسوة زوجة الأب على الطفلة المسكينة التي تتدخل العناية الإلهية لإنقاذها ، وتتداخل الحدود بين الخرافة والحكاية الشعبية .

والحكاية في اللغة " : هي ما يحكى ويقص ، وقع أو تخيل ، وهي " : ما يقص من حادثة حقيقية أو خيالية كتابة أو شفاها ، وهي مصدر مشتق من الفعل حكى يحكي حكاية ، أي قص و روى ، والحكي هو الكلام ، والحكاية هي القصة المروية التي يتناقلها عامة الناس فيحكيها الكبير للصغير ، وتتناقلها الأجيال حتى تصبح موروثاً شعبياً متعارفاً عليه . الحكاية من المحاكاة والقصة من قص الأثر ، والسالفة والسالوفة وجمعها سواف وسوافل من يسولف ، أي يروي الحديث عن الأمور والأحداث السالفة .^(١)

(١) انظر ، الحكاية الشعبية العراقية . كاظم سعد الدين : ٧ ، كذلك انظر : المعجم الوسيط مادة (حكى) ومادة (قص).

أصولها: يمكن أن تعد الحكاية الشعبية العراقية من اعرق الحكايات في العالم، ولعلها هي المنبع الأول لأغلب الحكايات، ويصعب على الباحث أن يبت برأي قاطع إن كان كثير من الحكايات غير متأثر بتراث بلاد الرافدين.^(١)

تقاليد رواية الحكاية ومجالسها:

لرواية الحكاية الشعبية تقاليد خاصة، فحكاية النساء غير حكاية الرجال، وحكاية البادية غيرها في الحاضرة. وتختلف هذه الحكايات في موضوعاتها ومجالسها وطريقة روايتها وأسلوبها .

أما وقتها ، فعلى العموم يكون ليلا ، ويتشائمون من رواية الحكايات نهارا ، لأنه "يؤثر في الفقر " أي سبب الفقر ، واللي يسولف بالنهار يصير حمار " وغير ذلك من المعتقدات . وينقل مجلس الحكاية من بيت إلى بيت آخر ، ولاسيما عند النساء، فيقولون "التعلولة " في اليوم الفلاني في بيت فلان . وتعني التعلولة قضاء الأمسية متعللين برواية الحكايات والأحاديث .

مجلس النساء:

في الشتاء تجلس النساء وأطفالهن حول (منقلة) وهي الكانون ، أو الموقد المصنوع من الطين في إحدى الحجرات أو حول سماور . ويقدم الشاي وبعض المأكولات كالزبيب والحمص والجوز واللوز مع التمر أو أي فاكهة متيسرة كالتين اليابس أو البرتقال والنومي (الليمون الحلو) .

أما في الصيف ، فينعقد المجلس في الحوش، أي في فناء الدار حيث تسكن مجموعه من عوائل الأعمام والأخوال ، فيعقد أحيانا على سطوح البيوت إذا كان البيت يتكون من أكثر من طابق واحد ، ولاسيما في الليالي المقمرة .^(٢)

مجالس الرجال:

يجتمع الرجال شتاء في المضيف أو الديوان أو في بيت احد الموسرين في حجرة واسعة ، طويلة ، تسمى الديوانية ، أما في الصيف فيخرجون من الحجرات إلى (الطارمة) أو (الحوش) في البراني . وفي الريف تفرش البسط بجانب المضيف أو في إحدى الحازات التي تتظف وترش عصرا . ويجلس الرجال متقابلين ، وفي الوسط دلال القهوة . وكانت في المدن مقاه خاصة لرواية القصص التراثية ، أمثال قصة عنتره والسيرة الهلالية وألف ليلة وليلة .^(٣)

تنقسم الحكايات حسب المكان.

أ: حكايات أهل الصحراء:

تمتاز حكايات أهل البادية والصحراء من البدو والأعراب بطابع خاص يربطها بتلك الصحراء وظروفها ومناخها وطبيعة الحياة والمعيشة فيها .

فنجد لديهم حكايات عن الكرم ، وهو ما يتفاخر به أهل الصحراء ، والفروسية ، والغزو ، والصيد والصبر ، والإناء ، والرعي مع المواشي ، أو موارد الماء ، وكل هذه الأشياء من صميم حياة البادية وأهلها .

ب: حكايات أهل القرى :

(١) انظر ، معالم مضيئة من التراث الشعبي ، كاظم سعد الدين : ٩

(٢) انظر . الحكاية الشعبية العراقية : ٨-١١

(٣) انظر الحكاية الشعبية العراقية : ١١ - ١٢

أما حكايات أهل القرى فتدور أحداثها حول الفقر ومشكلاته المختلفة والتطلع إلى الغنى عن طريق عفریت من الجن ، أو العثور على كنز مرصود ملئ بالجواهر الثمينة أو العثور على آثار قديمة نادرة وغالية الثمن في مغارة أو في قبر دارس قديم ، أو في بئر مهجورة أو غير ذلك ومن الطبيعي أن حكايات أهل القرى لا تخلو من قصص البطولة والوفاء والكرم والذود عن الحمى ، وإكرام الضيف وغيره ، إضافة إلى قصص السحر والشعوذة وشخصيتها هي المرأة ولا فرق بين هذه وتلك من ناحية المعتقد والتفكير إلا فيما ندر .

ج: حكايات أهل الحواضر والمدن :

أما أهل الحواضر والمدن فتدور أحداثها حول التجار ومغامراتهم ومغامرات ابنائهم ، وما يحدث معهم من قصص الغش والمكر والخداع وغير ذلك ، وذلك يعود إلى جو المدينة الذي تكثر فيه التجارة والحركة اليومية النشطة ، فضلاً عن قصص الجوارى والخدامين ، ومحاولة الوصول إلى التجار الكبار أو الوزراء أو الملوك ، وحكاياتهم مختلفة ومتنوعة حول هذا الموضوع ، وقصص الغرام التي تحدث بين أبناء الطبقات الغنية والفقيرة ، وما يصاحب ذلك من مشاكل تفرضها الفروق الاجتماعية^(١) .

الحكاية الشعبية العراقية تتحد مع الحكاية الشعبية في باقي الدول العربية في كثير من الحكايات وخاصة تلك التي تتحدث عن الشخصيات التراثية ، والأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة في عصورها المختلفة . إلا أن الحكاية الشعبية العراقية فيها خصوصية في كثير منها لا أنها محكومة ضمن بيئة معينة ، هناك تراث شعبي خاص بها .

في أدبنا الشعبي العراقي ، وفي مجال الحكاية ، هناك ظواهر تستحق التوقف عندها ودراستها . هذه الظواهر تكاد تنحصر في أدبنا الشعبي ولانجد لها مثيلاً في أدب الشعوب الأخرى . ما يميز هذه الظواهر أنها صارت متأصلة بحياة شعبنا العراقي بعد أن ألفت بظلالها على آمال وأفكار هذا الشعب وطبيعته التكوينية . لا عجب في هذا أن الأدب الشعبي يمثل ، بحد ذاته ، ظاهرة اجتماعية إبداعية أسهمت في تكوينها شحنات النفس العفوية التي اعتمدت لغة الشعب المحكية وسيلة للتعبير عن همومها وتطلعاتها وانفعالاتها . لقد اختار الإنسان العراقي لهجته الشعبية للتعبير عن همومه وأصواته الداخلية لا أنه اكتشف بفطرته النقية أنها هي الأقدر على إيصال صوته من خلال أغان وترنيمات إبداعية .

لذا سأختار في هذا البحث بعض الحكايات الشعبية العراقية وبعضها باللهجة المحلية واطمأنا في المبحث الأول (وهو مبحث المتن) أما المبحث الثاني ، فسيكون للنقد والتحليل مع ملاحظة الأصول الثقافية لهذه الحكايات ، فضلاً عن طرح بعض المفاهيم التي تحاول الحكايات ترسيخها كبنية ثقافية في ذهن المتلقي . أرجو أن أوفق في إخراج هذا البحث بصورة متقنة وطرحى آراء مبتكرة ، كمن يزيل الغبار عن آثار مهمة في البنية الثقافية والتاريخية للمجتمع العراقي .

المبحث الأول

حكايات من التراث الشعبي العراقي

(١) انظر أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، نبيلة إبراهيم : ٩٨٠ . كذلك انظر ، اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية ، عمر محمد

في هذا المبحث سوف نتناول بعض الحكايات الشعبية العراقية المدونة في الكتب الخاصة بالحكايات الشعبية العراقية . او في مجلة التراث الشعبي العراقية . ومنها حكاية باللهجة المحلية . ومنها كذلك . ثلاث حكايات تتردد في ثلاث مدن ، وثلاثة اسماء مختلفة حكاية اسمها في الكوت (ابو نية وابو نيتين) وفي البصرة (دم البقرة الصفراء) وفي الخالص (حامض اللبن وطبيب اللبن) ويقول الاستاذ (كاظم سعد الدين) عن هذه الحكاية أيضا انه قراها مترجمة عن الكردية بعنوان (سعيد وشقي).^(١)

الحكاية الاولى : (ابو نية وابو نيتين)

كان ما كان في قديم الزمان رجل يسعى كل صباح باحثا عن عمل يعيش منه لكنه لا يجده . وفي يوم من الايام سال نفسه : الى متى ابقى على هذه الحال ؟ وقرر ان يهجر مدينته ويذهب الى مدينته اخرى كي يجرب حظها فيها عسى ان يحصل على عمل يعيش منه . اعد طعام المسير ووضع قرية الماء على كتفه وسار في طريقه وهو يمشي صادفه رجل ، هذا الرجل سال صاحبا عن اسمه ووجهته ، اجابه : بان اسمه (ابو نية) ووجهته البحث عن عمل يعيش منه في بلدة اخرى ، فلما كان من هذا الرجل الا ان قال له بانه ايضا يبحث عن عمل ، وطلب مرافقته قائلا له : ان كنت انت (ابو نية) فانا (ابو نيتين) . سارا معا في الطريق ، وفي اثناء المسير قال (ابو نيتين) لصاحبه : لننتفك اذا جعنا ناكل من طعامك ونشرب من مائك ، وعندما ننتهي نرجع الى طعامي ومائي . قال (ابو نية) ماشي كلامك نحن الان اخوان وطعامي طعامك . واخذا يمشيان الى ان تعبوا وجلسا ليستريحا . اخرج (ابو نية) طعامه وشرابه واكل الاثنان . وبقي على هذه الحال الى ان نفذ طعام (ابو نية) ، وهما يسيران في طريق البحث عن العمل . جاع (ابو نية) وحسب الاتفاق طلب من رفيقه طعاماً وماءً ولكن (ابو نيتين) رفض اعطائه ما طلب الا بشرط ، هذا الشرط هو ان ينفك احدي عيني صاحبه (ابو نية) ظل (ابو نية) في حيرة من امر صاحبه هذا ومن شرطه العجيب لكنه ازاء عقارب الجوع وفعلها في معدته وافق على شرط (ابو نيتين) . ففك (ابو نيتين) احدي عيني صاحبه واعطاه قليلا من الطعام

اكل صاحبا الطعام واحتاج الى الماء الذي طلبه من صاحبه (ابو نيتين) لكن هذا رفض اعطائه الماء الا مقابل فقه عينه الاخرى ، وازاء عطشه وافق (ابو نية) على شرط (ابو نيتين) (الثاني ففك (ابو نيتين) عين صاحبه الثانية ، واعطاه قليلا من الماء وتركه وغادر المكان مواصلا رحلته ، وصاحبه يعاني من الالام المبرحة. صاحبا (ابو نية) لم يستطع مواصلة السير لكنه وصل قرب شجرة جلس تحتها ليستريح . وفي هذه الاثناء سمع صوت سبع وذئب يتحدثان معا . قال الذئب الله ، ما اعظم هذه الشجرة . اجابه السبع : وما وجه العظمة فيها ؟ قال الذئب : كم اعمى فتحت عينه ، وكما اخرس نطق وكما مريض شفي ، كل ورقة من اوراقها تشفي مرضا . رد عليه السبع : اذا انت عرفت سر اوراق هذه الشجرة ، فانا اخبرك بسر لا يعرفه احد غيري : هذه الشجرة مدفون تحتها كنز من الذهب لا يعرف احد عنه شيئا . سمع (ابو نية) كلامهما وما ان غادرا حتى قام الى الشجرة واخذ ورقة من اوراقها ووضعها على احدي عيني فشفيت في الحال ، وفتحت ثم فعل بالعين الاخرى ما فعله بالاولى وشفيت هي الاخرى .

فرح فرحا عظيما واخذ مجموعة من اوراق هذه الشجرة ، ووضعها في جيبه وواصل مسيرته الى ان وصل الى مدينة دخلها فوجد الناس مجتمعين امام باب بيت الملك وهم في حالة هرج ومرج . سألهم عن سبب اجتماعهم ، فأجابوه : بان بنت السلطان اصيبت بالخرس واي شخص يخلصها من هذه العلة تصبح زوجا له . واذا لم يستطع شفاءها تضرب عنقه.

(١) كاظم سعد الدين :- الحكاية الشعبية العراقية : ١٧

قال : انا استطيع ان اكلهما، لكن الناس حضّوه على ان لا يورط نفسه مع ابنة السلطان ، حيث ان الكثيرين قتلوا بسبب عدم قدرتهم على شفاؤها .

دخل (ابو نية) على بنت السلطان واخرج ورقة من اوراق الشجرة العظيمة العجيبة ووضعها على فم بنت السلطان فتكلمت في الحال . فرح الجميع وامر السلطان بزواجها منه لكن (ابو نية) طلب تأجيل الزواج لمدة من الزمن . اخذ (ابو نية) مجموعة من الرجال وذهب الى الشجرة حفر تحتها واخرج كنز الذهب ورجع الى مدينة السلطان وبنى قصرا فخما اجمل من قصر السلطان وتزوج فيه بنت السلطان . واخذ يساعد المحتاجين والفقراء واحبه الناس جميعا ، وعينه السلطان مسؤولا عن بيت المال فوافق على ذلك .

مرت الايام ، توفي السلطان وقام (ابو نية) مقامه . وفي احد الايام جاء (ابو نيتين) الى المدينة ، بعد ان سمع بكرم سلطانها ومساعدته للفقراء والمحتاجين . عرفه السلطان وسأله عن حاله فأجابه : بأنه لم يستفد من رحلته ولم يحصل على عمل . غفر (ابو نية) لصاحبه كل ما فعله به ، وعينه في قصره بعد ان بين للناس بانه اخوه . لم يستفد (ابو نيتين) من هذه الفرصة ، واكلت قلبه الغيرة والحسد ، واخذ ينافق على صاحبه السلطان مدعيا ان السلطان سارق ، سرق بيت المال وعمل قصرا له وصرف الباقي على الفقراء بحجة انه يصرف من ماله الخاص لكن الناس لم يصدقوه ، وهم يعرفون السلطان قبل ان يصبح مسؤولا عن بيت المال .

وفي يوم من الايام جمع (ابو نية) الناس في قصره بحضور (ابو نيتين) وسرد عليهم القصة من البداية وعمله القبيح معه وحكى لهم قصة الكنز وافعال (ابو نيتين) ضده . احتج اهل المدينة على (ابو نيتين) وطالبوا بإعدامه كي يتخلصوا من شره وحسده ، لكن السلطان لم يوافق على طلبهم قائلا : بانه يعطيه فرصة اخرى واخيرة وطلب منه ان يذهب الى الشجرة العظيمة ويجرب حظه عندها . ذهب (ابو نيتين) الى الشجرة وجلس تحتها في هذه الاثناء جاء الذئب والسبع واخذا يتحدثان . قال الذئب الى السبع : هذه الشجرة لها مميزات كثيرة ، قال السبع : انا اعرف عنها اشياء كثيرة مفيدة لكن السبع والذئب قالا معا : لنفتش حول هذه الشجرة . احتمال ان نجد تحتها احدا يسمع حديثنا ويكشف السر . سارا معا حول الشجرة ، فشاهدا (ابو نيتين) متخفيا تحتها ، هجما عليه واكلاه ، وبذلك تخلص (ابو نية) والناس من شره

(او لو كان بيته قريب جان جبتكم طبق حمص وطبق زبيب) .^(١)

الحكاية الثانية : (دم البقرة الصفراء)

كان ياما كان ، وعلى الله التوكل . كان في قديم الزمان في احدى المدن اخوان يعيشان معا ، لكن ابواب الرزق انسدت في وجهيهما فقررا السفر الى مدينة اخرى . حمل كل واحد منهما زاده ورحلا . وفي الطريق قال الصغير للكبير : لناكل من زاد احدانا حتى ينتهي ، ثم ناكل من زاد الثاني ، فأكلا زاد الاخ الكبير اولا ، وعندما انتهى زاد الكبير وماؤه وهما يسيران شعر الاخ الكبير بالعطش ، فطلب من اخيه الصغير ان يعطيه قليلا من الماء لكن الصغير قال : (ما معي يكفيني وحدي) وترك اخاه الكبير وانصرف وحده . سار الكبير وحده ايضا ، وهو يعاني الجوع والعطش الشديدين فضغت قواه فذهب الى حفرة ، واضطجع ليستريح فيها وفي هذه الاثناء مر جنيان وجلسا يستريحان قرب الحفرة . قال الجني الاول : (كيف تقضي وقت فراغك يا صديقي ؟) اجاب الجني الثاني (في مكان كذا توجد خزائن كثيرة ، اذا (ضجت) انظر اليها وتشرع نفسي وانت ، كيف

(١) قاسم خضير عباس :- ابو نية وابو نيتين ، التراث الشعبي ، العدد الاول ، ١٩٩٤ ، ص ٤٣ - ٤٥

تقضي وقت فراغك ؟ اجاب الجني الاول : (اما انا فاذا ضجبت ، ادخل راس اي فتاة جميلة فتصير مجنونة)
سال الثاني : (وما علاجها ؟) اجاب الاول : (يرش على وجهها دم بقرة صفراء ، فتصبح عاقلة) .

كان الشاب يسمع حديثهما ، وهما لا يريانه . ويعد ان استراح الجنيان انصرفا وخرج الاخ الكبير من الحفرة ، فابصر قافلة متجهة الى احدى المدن ، فأشار اليها بيده ، وراه بعض رجالها ، فحملوه معهم ولما دخل المدينة ، وجد الناس في حالة هرج ومرج فسالهم : ما بكم ياناس ؟

فقالوا له : انت غريب ولا تعرف شيئا . ان بنت السلطان مجنونة ، ولا يستطيع احد ان يشفيها ذهب الشاب الى السلطان وقال له : (انا اقدر ان اشفي ابنتك) فقال السلطان : (انها محبوسة في غرفة ، والكل يخاف الدخول عليها . اننا نعطيها طعامها وشرابها من الشباك ، هل تعلم انه اذا لم يفد علاجك قطعت رأسك ؟) ثم ادخل غرفة مملوءة بالرؤوس المقطوعة للأطباء الذين لم يستطيعوا علاجها فطلب الشاب خمسمئة ربية وان يمهل فترة فأعطاه السلطان ما طلب . اشترى الشاب ملابس جديدة واستأجر سكنا ، ثم سأل عن سوق الحيوانات واخذ يفتش عن بقرة صفراء ، ولكن لم يجدها . وكان كل يوم يذهب الى سوق الحيوانات من الصباح الى المساء ثم يرجع الى داره مرهقا حزينا ، الى ان جاء يوم وهو يبحث في السوق فابصر فلاحا يجر بقرة صفراء ليبيعهها فاشترها منه ، وذبحها ووضع دمه في طشت ثم ذهب الى قصر السلطان ، وطلب من الخدم ان يفتحوا باب غرفة بنت السلطان ففتحوها له ، وهربوا بعيدا ، اقترب الشاب من بنت السلطان ، ورش على وجهها دم البقرة فسقطت مغشيا عليها ، ويعد ان افاقت من غيبوبتها اخذت تبكي فأسكتتها الخادومات وادخلنها الحمام وحممنها وذهبت الى ابيها وقبلت يده ، وفرح كثيرا جدا .

شكر السلطان الشاب ، وقال له : (لقد شفيت ابنتي ، وسأزوجك بها) فرح الشاب ، وتزوج بنت السلطان ثم نقل كل ما في الحفرة من ذهب ومجوهرات .

وفي يوم من الايام خرج السلطان في مهمة ، فأوكل اليه السلطنة ، وبينما كان الشاب جالسا ، والناس يدخلون عليه رأى اخاه الصغير يرتدي ثيابا ممزقة فطلب من الحراس ان يعنوا به وادخلوه عليه ، فعرفه اخوه الصغير وراح يبكي وشكا اليه سوء حاله ، وحكى الاخ الكبير ما حدث له ، وطلب منه البقاء معه ليشركه في الحكم لكن الاخ الصغير قال : (انت وصلت الى هذه الحال حين نمت في الحفرة ، انا لا أعرف الحفرة جيدا ، سأذهب الى هناك واكن احسن منك ولا اريد منتك).

حاول الاخ الكبير منع اخيه الصغير من الذهاب لكن طمعه جعله يصصر على الذهاب ، فذهب اليها وجلس فيها وعندما جاء الجنيان ، قال الاول (كيف تقضي وقت فراغك يا صديقي ؟) فأجاب الثاني : لم يعد لدي شيء اتسلى به فقد اختفت الخزائن ، فتنهد الثاني وقال : (انا ايضا عرف سري) فقال الاول : (ربما يكون ابن ادم قد اطلع على سرينا) .

احس الجنيان بان في الحفرة شيئا فنظرا فيها ووجدوا الاخ الصغير . فانقضا عليه وقتلاه وهذه هي نهاية

الطمع^(١)

الحكاية الثالثة : حامض اللبن وطيب اللبن :

(١) وداد حسين ، حكايات شعبية من العراق : ٣٤ - ٣٧

يحكى عن صديقين اسم احدهما (طبيب اللبـن) واسم الآخر (حامض اللبـن)انهما اتفقا ان يهجرا القرية التي يعيشان فيها الى المدينة طلبا للعمل ، فحمل كل منهما معه متاعه في صرة وظلا يسيران حتى جاء المساء فقال (حامض اللبـن) لصديقه (طبيب اللبـن) : لنكن صديقين وفيين فننقسم طعامنا ونبدأ اليوم بطعامك وغدا بطعامي وكان (طبيب اللبـن) نقي الفؤاد فوافق في الحال ، وفرش المنديل ووضع عليه طعامه وتناولاه حتى اذا انتهيا قررا ان يفتش كل منهما عن مغارة ينام فيها ليله وصمم (حامض اللبـن) ان يهرب ويترك صديقه (طبيب اللبـن) الذي جاء الى مغارة فدخلها ووصل الى نهايتها ثم وضع امامه حاجزا من الشوك ونام غير انه استيقظ عند منتصف الليل على صوت يقول : (اني اشم رائحة انسان) .

فنظر (طبيب اللبـن) من وراء الاشواك فرأى اسدا وابن اوى وفاراً وحيوانات اخرى . فعرف (طبيب اللبـن) انه نام في منتدى الحيوانات وسمع ابن اوى يقول (لو يوجد انسان هنا لأجهزت عليه بلقمتين لا يوجد احد سوانا تكلموا ما تشاؤون) . فقال الاسد: (لو يعلم الانسان ان في الخرائب الفلانية كنوزا من الذهب مدفونة لذهب اليها واستولى عليها) .

وقال ابن اوى: (لو يعلم الانسان ان جمجمة فتاة باكر عذراء موجودة وراء التل ..) فلم يمهله الثعلب ، بل اكمل قول ابن اوى قائلا : (اذا وضع الانسان فيها حليبا من العنزة الفلانية عند الراعي الفلاني وتركها ستاتي افعى وتشرب منها ثم تتقيأ الحليب ..) فسبقه ابن اوى الى النتيجة (فيكون ذلك دواء لكل مبتلى بالجنون) فقال الفار : (ولو انه علم ان بنت السلطان مريضة لذهب اليها بهذا الدواء واشفاها ..) وكان (طبيب اللبـن) يستمع الى ذلك مبهور الانفاس ويتمنى لو ان الصباح اشرق في الحال . فبحث عند الصباح عن الجمجمة وحلب العنزة وترك الحليب فيها فجاءت الافعى وشربت منه وتقيأته .

فأخذه (طبيب اللبـن) ووضعها في اناء وتوجه الى بيت السلطان وتوقف امام بابه ، وشرع ينادي (طبيب .. طبيب .. حكيم يشفي الامراض ... يشفي الجنون) فخرج اليه رجل من رجال السلطان وقال له : (ابنة السلطان مصابة بالجنون منذ سنة وانت تدعي انك تستطيع شفاها فان لم تستطع فان السلطان يقطع راسك كما قطع رؤوس الآخرين) واراها له .

فوافق (طبيب اللبـن) وادخلوه القصر . وطلب منهم ان يعقدوا له على البنت كي يحل له رؤية جسمها وتطبيبها فادخلوها في غرفة خاصة ونزعوا عنها ثيابها كما طلب منهم الطبيب . فذلك جسمها بالسائل الذي معه ، واغلق عليها الباب ، وتركها نائمة كما لم تتم من قبل .

ثم صحت من نومها وطلبت ملابسها وشعرت بالخجل من وضعها كما لم تشعر من قبل ونادت من اجل الطعام، فجلب لها ، وفرح كل من في القصر ، وسر والدها وقال ل (طبيب اللبـن): بما انك شفيت ابنتي من مرضها فهي زوجتك حسب العقد ، وانك وريثي من بعدي فخرج (طبيب اللبـن) من القصر واخبرهم انه ذاهب الى اهله لجلب خزانته بيد انه في الحقيقة استأجر جمالا وذهب الى الخزائن فحفر الارض واستخرج الكنوز المدفونة فيها ، وعاد بها الى قصر السلطان وتزوج ابنته في حفل بهيج ومرت الايام واذا ب(طبيب اللبـن) جالس امام قصر السلطان ، فمر به رجل رث الثياب ، ارسل (طبيب اللبـن) في طلبه ، وسأله : هل تعرفني يا (حامض اللبـن) ؟ قال : لا (قال له : انا صاحبك (طبيب اللبـن) ا تذكر يوم اكلت طعامي وتركنتي جائعا في المغارة الى اليوم الثاني ؟ . ثم قص عليه قصة المؤتمر والسر الذي سمعه من الحيوانات فكان ما كان فذهب (حامض اللبـن) الى نفس المغارة التي نام بها صاحبه (طبيب اللبـن) وعند منتصف الليل جاءت الحيوانات واكتمل النصاب

فقال الاسد : (اني اشم رائحة انسان) وايده الجميع في قوله واحساسه ، وفتشوا عنه فوجدوه وراء حاجز الشوك ، وقالوا : (ان هذا هو الذي سمع سرنا في السابق وسرق الكنز فمزقوه اربا) (١).

الحكاية الرابعة: قمر الزمان :

يحكى ان الملك الذي كان يحب الازكياء ، ويقربهم اليه دائما ، ويسعد بمجالسهم واختبارهم بأسئلته الذكية، كان في إحدى الصباحات يتنزه مع وزيره في حديقة القصر الواسعة ، فمرا ببحيره رائعة تزينها تماثيل اسود يخرج الماء العذب من افواهها بطريقة معجبة وساحرة . شعر الملك بالعطش ، وطلب من الوزير ان يسقيه شربة ماء .. فتناول الوزير طاسة فضية كانت على الحافة ، وملاها ، ثم سقى الملك ، واعاد الطاسة الى مكانها . نظر الملك الى الطاسة بعد ان استقرت في مكانها ، ثم التفت الوزير ، وقال :

- ايها الوزير ! لقد تكلمت الطاسة ، فماذا قالت ؟!

وحجم الوزير ، وكسا التعجب ملامحه ، ولم يدر بماذا يجيب . فالطاسة جماد، ولا يمكن لها ان تتكلم ولكن هل يجرؤ على قول هذا للملك ؟!

ولما طال صمت الوزير ووجومه ، صاح به الملك:

- امهلك ثلاثة ايام لتأتيني بما تفوهت به الطاسة ، والا نالك مني عقاب قاس ! عاد الوزير الى بيته مهموما حزينا ، ثم دخل غرفته ، واغلق على نفسها بابها ، وراح يفكر ويفكر ، ولكنه لم يهتد الى حل او جواب مقنع ، وراح يتساءل : (تري ماذا يقصد الملك بسؤاله ؟ .. هناك جواب ، ولاشك ، يدور في خلد .. ولكن ما هو ؟! طالبت خلوة الوزير في غرفته فقلقت عليه ابنته الوحيدة (قمر الزمان) ، فاقتربت من باب الغرفة ، ونقرت عليه بلطف ، ثم استأذنت بالدخول ، فأذن لها .

قالت قمر الزمان لأبيها : (مضى عليك يومان وانت معتكف في غرفتك ، وارى الهم واضحا على وجهك ، فماذا جرى يا ابي ؟!

قال الوزير :

- حدث امر جلل يا ابنتي ..! لقد طرح علي الملك سؤالا صعبا ومستحيلا ، وامهلني ثلاثة ايام لأجيبه عليه ، والا عاقبني عقابا قاسيا !

قالت قمر الزمان : و ما هو السؤال يا ابي ؟

قال الوزير - : سقيته الماء في طاسة، ولما اعت الطاسة الى مكانها ، قال لي : لقد تكلمت الطاسة،فماذا قالت ؟ ضحكت (قمر الزمان) ، وقالت انه سؤال ذكي ، وجوابه يجب ان يكون ذكيا ايضا!

صاح الوزير بلهفة - : وهل تعرفين الجواب يا ابنتي ؟

قالت (قمر الزمان) :- طبعا .. فالطاسة قالت : صبرت على النار ، وطرق المطارق ، وبعدها وصلت الى المباسم ، وما من ظالم الا سيبلى بالظلم !

وعلى-٩٨

الفور لبس الوزير ثيابه ، وقصد مجلس الملك ، ثم نقل اليه الجواب كما قالته ابنته اعجب الملك بالجواب

الذي كان اذكى من السؤال ، ولكنه شك في ان يكون الوزير هو الذي اتى اليه ..

(١) كاظم سعد الدين . الحكاية الشعبية العراقية.

وفي صباح اليوم التالي ، فاجأ الملك الوزير قائلاً : ايها الوزير ! اريدك ان تأتي الى مجلسي غدا لا راكبا ولا ماشيا .. وان فشلت ، فان عقابك سيكون قاسيا ، وقاسيا جدا !صعق الوزير للطلب المعجز ، وانصرف من مجلس الملك مهموما ، وعندما وصل الى بيته ، استنجد بابنته (قمر الزمان) ، وحدثها عن طلب الملك ، وطلب منها الحل . ابتسمت قمر الزمان ، وقالت لأبيها : وهذا ايضا حله هين يا ابي !

وفي صباح اليوم التالي ، احضرت (قمر الزمان) لأبيها دابة صغيرة ، فركب عليها وذهب الى قصر الملك ، وهو راكب على الدابة ، وقدماء على الارض .

ذهل الملك لحسن تصرف الوزير ودهاء حله ، فادناه منه ، وهمس له : قل لي من يقول لك ذلك .. ولك الامان!

قال الوزير : انها ابنتي (قمر الزمان) يا مولاي !

قال الملك : احضرها لي في الحال !

ولما مثلت (قمر الزمان) بين يدي الملك اعجبه جمالها ولكن ذلك لم يثته عن اخبارها في سؤال معجز ، تكون الإجابة عليه مستحيلة . قال الملك : سأ تزوجك الليلة يا قمر الزمان ، واريدك ان تحملي مني في الفور ، وان تلدي الليلة ولدا يكبر في ساعات ويغدو في الصباح ملكا يجلس على عرشي !

ابتسمت (قمر الزمان) وقالت يا مولاي ! واقتربت من النافذة المطلّة على جزء كبير من الحديقة لأزرع فيه، ثم التفتت الى الملك وقالت .. اريدك يا مولاي ان تحرث هذه الارض الليلة ، وتزرعها الليلة وتقطف الزرع الليلة ، واكل من ثمارها في الصباح !

ذهل الملك ، ونهض صائحا هذا غير معقول !!

قالت قمر الزمان - : كيف تريدني اذن ان انجب لك ولدا الليلة ، ويكبر في ساعات ، ويغدو في الصباح ملكا ؟! سر الملك من جواب (قمر الزمان) ثم عقد قرانه عليها ، واصبحت ملكة جواره وعاشا معا حياة سعيدة^(١)

الحكاية الخامسة : ولاية بطيخ :

ملاحظه: إنما اورد هذه الحكاية في هذا المبحث ، لا لسمّة جمالية فيها وانما لما تشير اليه من مستوى اخلاقي متدنٍ في صفوف السلطة الحاكمة في ذلك الزمان .مع التحفظ على النسق الثقافي الذي تؤسس اليه هذه الحكاية، فهو نسق خطير ويؤسس لثقافة (الخواة) ويعطي التبريرات للصوص وقطاعي الطرق ، لكنها حكاية شعبية عراقية ، وربما هذا بعض ما يفسر لنا ظاهرة شيوع الفساد الاداري واللصوصية و(الحواسم) في المجتمع العراقي . وهي حكاية المثل الشعبي المعروف . يحكى ان يتيماً في بغداد ، استطاع ان يجمع مبلغاً من المال قيل انه يساوي ليرة واحدة ، بعد ان عمل حطاباً خارج اسوار بغداد ، وقيل ان بغداد كانت مسورة بعدة اسوار ، وعلى كل باب سور يقف حراس ، وكان اليتيم يأمل ان يثري ، فاشترى سبع بطيخات واراد بيعها داخل بغداد ، ولكن حراس الابواب اخذوا منه ست بطيخات بدعاوى وحجج مختلفة ، لغرض سلبها منه ، وتبقى الأخيرة فتؤخذ منه بحجة ان الملك لديه ضيف مريض ولا يشفيه الا البطيخ ، فيخسر بذلك جميع ماله . ويشكو امره فيقال ان امره موكل الى جلالة الملك . ويريد الوصول الى الملك ولكن الحراس يمنعون . وتمنع سائر الناس من الوصول الى الملك لئلا يعرف ما يجري خارج البلاط فيضطر اليتيم الى ان يسلك سبيل التمرد ويكون عصابة ليأخذ الخاوة من الناس و طبعاً هذه العصابة كلها من امثال هذا اليتيم . وهو يعتمد الى قطع طريق الناس ويؤذيهم حتى يشتكوا منه الى الملك . ولكن جماعة الملك شاركوا اليتيم في العصابة واخذوا الخاوة لان شافوا بيه فائدة لهم . ويخترع اليتيم

(١) داد حسين . المصدر السابق : ٨٦ - ٨٩

(رئيس العصابة) طريقة غريبة لأخذ الخاوة ، وهي انه يمنع الناس من البكاء على موتاهم وكذلك يمنعه من ان يدفنوا امواتهم الا من بعد ان يعطوا الخاوة . ويتفق ان تموت ابنة الملك فيمنعهم من الدفن ولأنه عصابة قوية فيرجع جماعة الملك ويخبروا الملك ان هناك انسان شرير ومجرم يمنعهم من الدفن ويريد منهم خاوة . فيرسل اليه الملك ليستطلع خبره فيقول له ان ولايتك ولاية بطيخ هي السبب وقص عليه القصة فيعاقب الملك المجرمين والسراق بعد ان يعلن اليتيم توبته وانه ما قام بهذا العمل لأذية الناس ولكن ليصل الى الملك ويعينه الملك وزيراً عنده ويطرد باقي الوزراء . وخلصت الحكاية (١).

حكاية السادسة: حكاية بنت المعيدي :

منذ ثلاثينيات القرن الماضي وحتى سبعينياته ، ظلت تلعب لوحة (بنت المعيدي) دوراً جمالياً وثقافياً مدهشاً في مخيلة العراقيين ، كانوا يعلقونها على جدار غرفة الضيوف الى جانب صورة صاحب البيت ، او بموازاة صورة الملك غازي ثاني الملوك او من تلاه من حكام العراق . بوصفها ملكة تتربع على عرش الجمال بلا منافس وكان يحرص الاكثر سعة منهم على تأطيرها وترجيحها بحيث يستطيع الداخل والخارج ، من افراد الأسرة ومن اقاربهم واصدقائهم ، ان يحصل على زاوية مناسبة لمشاهدتها بكل تفاصيلها . حتى اصحاب المقاهي ، والباعة في دكاكينهم الصغيرة ، واصحاب الحمامات العامة ، والمطربون الشعبيون ، والحلاقون ، وصاغة الذهب ، لا تعيهم الحيلة في ايجاد مطرح مناسب يليق بصورة (بنت المعيدي) يتباهون بتعليقها امام انظار زبائنهم ، فهي رمز الجمال العراقي الصارخ والحزين ، الجميع يسعدهم تأمل ملامح تلك السيدة الصغيرة وهي تطل بنظرتها الحاملة البريئة الى زاوية الصورة متحاشية النظر مباشرة الى عين المشاهد . تفاصيل صاحبة الصورة توحى بترف لذيق ، وغنى فاحش ... فهي تبدو سيدة في مطلع العشرينيات تتألق على جيدها ثلاثة عقود جميلة ، الاولى من حبات لؤلؤية صغيرة تشكل خمسة أطواق ينسجم بياضها مع بياض البشرة الناعمة ، والثاني من خرز لؤلؤي اكبر حجماً ، بينما العقد الثالث ذهبياً تتوسطه جوهرة كبيرة الحجم تتدلى على الجزء الاعلى من صدرها . وبطريقة ملكية بهية ، تعلو رأس صاحبة الصورة قبعة على شكل تاج ، تتألق في قمته تشكيلات زهرية مصنوعة من قماش الدانتيل ذي لون وردي فاتح ، وتلتف ببراعة على تشكيلة شعاعية من حبات لؤلؤية صغيرة ، تقوم كلها على ظفيره من الجنيهات الذهبية الخالصة والمصممة على هيئة عقار عربي تغرق هذي التفاصيل المدهشة ببحر من خصلات شعرها البني التي تنتشر متموجة بغزارة على كتفيها لتغمر جزءاً من ثوبها الاحمر المطرز بخرز واقراص لماعة حكاية للجميع يكاد يكون الحديث عن (بنت المعيدي) مدخلاً مناسباً للكثير من الاحاديث التي تدور بين الناس آنذاك ، بل قد يصبح الحديث عن جمالها وقصتها الغريبة ، ملاذاً شديداً الجاذبية ، عندما لا يجد الناس ما يتحدثون به . مثلاً استلهم المغنون الشعبيون والمسرحيون من جمالها وحكايتها الحزينة اعمالاً فنية لاقت رواجاً لافتاً ، فهذا المطرب الشعبي البحريني عيسى بدر يقول في احدى اغانيه (بنت المعيدي سافرت قطر اربعة شهور ما جاني خبر) وفي المسرح قدم المخرج العراقي محسن العزاوي مسرحية اعتمدت على اسطورة (بنت المعيدي) في الجنوب يسمونها (ليلي المعيدية) ، وهناك من يصحح ويدعي انها (فاطمة ، أو جميلة المعيدية) ، غير ان الاسم موضع الخلاف قد يختفي ، ويكتفي الناس بأطلاق لقب (بنت المعيدي) . اما في شمال العراق فيطلقون عليها لقبين ، الاكراد يسمونها (كيجي كافروش) وتعني بالعربية ابنة التبان ، بينما يطلق عليها التركمان اسم (صمانجي قيزي) وتعني ابنة عامل او بائع التبغ . ولكن السؤال الذي يبقى يلح بطلب الإجابة : ما حقيقة هذه الصورة؟ ومن هي صاحبها ، هل هي حقا فتاة عربية من منطقة الاهوار في جنوب

(١) كاظم سعد الدين بحكاية الشعبية العراقية : ٧٦ - ٧٧

العراق كما تدعي الأسطورة الشعبية ، ام انها فتاة تركمانية من اسرة فقيرة ام هي كردية لاب يعمل تباناً ؟ لا احد يستطيع ان يجزم بحقيقة الصورة ، بالرغم من كل من يتصدى للإجابة ينسبها بقة اليه ، لذا ليس لنا غير تلك الحكايات التي تواترت على السنة الناس لسنوات طوال وفي مناطق العراق المختلفة .

تقول الحكاية الجنوبية :

ان بنت المعيدي فتاة من منطقة الاهوار ، واسمها جميلة ولدت في عام ١٩٠٤ في لواء العمارة (حاليا مدينة ميسان) واحدى الروايات الفرعية تؤكد انها ابنة فلاح بسيط ، بينما ترى الرواية الثالثة انها ابنة احد مربى الجاموس من سكة الاهوار الذين يطلق عليهم اسم (المعدان) تبدأ القصة بحادثة مفادها ان ضابطا إنكليزيا في حقبة الثلاثينيات وكان ضمن الحملة البريطانية على العراق ، شاهد بمحض المصادفة هذه المرأة فبهره جمالها ، ووقع في غرامها يسأل الضابط عن عائلتها ، ويوسط بعض المقربين من اسرتها للزواج منها ، وامام الرفض الشديد يصل الامر بهذا العسكري الى ان يرسل وفدا من وجهاء وشيوخ مدينة العمارة لطلب يد الفتاة الجميلة .. الا ان والدها وعشيرتها يرفضون بشدة تنفيذ رغبة هذا البريطاني المحتل .. وتتقل الرواية عن احد اعمام الفتاة احتجاجه الشديد بقوله (اما يكفي احتلالهم للعراق .. هذه المرة يريدون الزواج من بناتنا ..) ويتواصل سرد الحكاية الى منعطف دراماتيكي عندما يبيت الضابط في سره امرا خطيرا .. فقد وضع خطة لخطف بنت المعيدي والرحيل بها الى بريطانيا ، وبالفعل حقق مراده وخطف الفتاة وحلق بها على متن طائرة عسكرية ، لينتزوجها وينجب منها ولدا !!

شظايا وحكايات ثم تنشظى نهاية الحكاية الى حكايات تختتم دائما بنهايات مأساوية اذ تبين لنا ان هذا الضابط واسمه (نكسن) كان متزوجا ، وان زوجته البريطانية ارادت ان تنتقم من السيدة التي جاء بها زوجها من اهوار الجنوب العراقي فعمدت الى قتل رضيعها بطريقه بشعة ، فجن جنون بنت المعيدي فقتلت الضابط وزوجته وهربت متنقلة بين البلدان الى ان حطت رحالها اخيرا في قريتها الاولى بينما يروي اخرون انها رفضت الزواج منه ، وقفزت من الطائرة وهربت الى اعماق الاهوار لتعيش هناك حياة بدائية معتمدة على صيد الاسماك ، وفي كل الحالات يعبر العسكري البريطاني عن غرامه ويرسم لوحة رائعة لتلك السيدة الجميلة التي رفضته !! تفاصيل القصة التركمانية القادمة الى مدينة كركوك الشمالية لا تختلف عن قصة مدينة العمارة الجنوبية تقول القصة ان الفتاة الجميلة تحدر من عائلة تركمانية فقيرة الحال وكان ابوها يعمل تباناً (صمانجي)، يسكن محلة (القلعة) التاريخية ، وفي يوم من الايام وعندما كانت الفتاة تنظف عتبة الدار صادف مرور مجموعة من الضباط الانكليز فبهر احدهم بجمالها ..وتقدم الى اهله مع بعض الوجهاء والمتنفذين في المدينة طالبا يدها للزواج ، وامام رفض والديها بسبب اختلاف الدين ، اعلن الضابط عن استعداده لاعتناق الدين الاسلامي ثمنا للاقتران بها ! وبعد عدة محاولات باءت بالفشل مارس الضابط الانكليزي ضغوطا نفسية ومادية وحكومية ، وتم زواجه منها وبعد زواجهما غادرا مدينة كركوك الى لندن ليعيشا فيها عيشة سعيدة . وقد استعان الزوج - كما تروي الحكاية - بأحد اشهر الرسامين الانكليز ليرسم له لوحة (بورترت) للسيدة فأنجبت فرشاته هذه القطعة الفنية الرائعة التي ارسلها الزوج من باب الوفاء الى اسرتها ليخفف عنهم وطأة فراقهم لابنتهم ، فكان ان انتشرت الصورة بشكل سريع بعد ان قامت شركة بريطانية بطبعها وتوزيعها على نطاق واسع لتزدان بها بيوت قلعة اربيل بوصفها (بنت المحلة) وانتشرت الصورة بسرعة في المدن العراقية الاخرى .. بينما تذهب رواية اخرى الى اتجاه مختلف تماما عندما تعتمد عائلة الفتاة الى ابعاد الابنة عن الانتظار حتى لا يقف أثرها احد وقيل انها اجبرت على الإقامة في احدى دور اقاربها تحت حراسة مشددة لحين رحيل الضابط وان اللوحة المرسومة للفتاة ماهي الا نتاج لفرشاة هذا الضابط الفنان الذي لم يجد حلا سوى ان يرسم هذه اللوحة لتعوضه عن فتاة احلامه . وفي هذا الصدد يذكر احد

الباحثين "انتشرت في ستينيات القرن الماضي اغنية بصوت المطرب التركماني محمد احمد اربيلي يتغنى فيها بصاحبة الصورة ويقول في مطلعها (صمانجي قيزي .. اون دورت ياشينده) اي ابنة التبان ذات الاربعة عشر عام ..."^(١) الاكراد العراقيون لديهم بدورهم قصة ثلاثهم عن صاحبة الصورة فهم يسمونها (كيجي كافروش) الفتاة الجميلة والجدابة والساحرة ، وقد شاعت صورتها في بيوت الاكراد ، بل اصبحت معيارا للجمال الصارخ ، حتى انهم يقولون في معرض وصفهم لأية فتاة جميلة " ان جمال فلانة كجمال كيجي كافروش " كما اشتهرت بمطلع خمسينيات القرن الماضي اغنية للمطرب الكردي حسن زيرك تتحدث عن كيجي كافروش . وخلاصة الحكاية الكردية التي تعتمد كشيقيتها العربية والتركمانية على الثيمة ذاتها : اي ان عسكريا بريطانيا بهر بجمالها فخطفها وحاول نقلها في طائرة متوجه الى لندن ، لكنها قفزت من الطائرة رافضة ان تتحول الى اسيرة ، ومن يومها تحولت كيجي كافروش الى اسطورة كردية . وسارع الفنانون لرسم لوحة لهذه السيدة الجميلة ذات الشخصية المتحررة والقوية . اصل اللوحة غير ان ما هو مرجح بقوة ان لوحة (بنت المعيدي) او (كيجي كافروش) سواء اكانت تعتمد على حقيقة ام اسطورة نسجها الخيال الشعبي العربي او الكردي او سواء ، رسمت بفرشاة فنان غربي.^(٢)

المبحث الثاني

نقد وتحليل ثقافي وبحث عن اصول الحكايات

الحكايات التي أوردتها في المبحث الاول (المتن) وهي ست حكايات تبدو لأول وهلة مختلفة عن بعضها عدا الحكايات الثلاثة الاولى الا ان هذه الحكايات كما في معظم الادب الشعبي القصصي ، لا يمكن ان نجد لها اصلاً محدداً او مؤلفاً معيناً ومعروفاً او حتى تاريخ تأليفها . وهي مع ذلك تلتقي مع بعضها في سمات الادب الشعبي التي سأذكرها لاحقاً ضمن سياق هذا المبحث . كما سألقي الضوء على بعض الاصول الثقافية لهذه الحكايات بصورة مختصرة ، مراعية بذلك كون هذا البحث مختصراً لا يحتاج الى استرسال في سرد الافكار والرؤى النقدية . وبالعودة الى بعض مفاهيمها . اقول : الحكاية الشعبية هي أحداث يسردها راوية في جماعة من المتلقين وهو يحفظها مشافهة عن راوية اخر ولكنه يؤديها بألفاظ الحكاية وان كان يتقيد بشخصيتها وحوادثها ومجمل بنائها العام . وغالبا ما ترويها العجائز لأحفادهن في ليالي الشتاء الطويلة قبل الذهاب الى النوم وقد يرويها غير العجائز في مواقف الوعظ والاعتبار وضرب المثل ولكن الحكاية لا تُسرد على الاغلب الا ليلا في جو يتم التهيؤ له ، فلجدة تلقي الحكاية بلغة خاصة متميزة ليست لغة الحديث العادي مما يمنحها قدرة على الايحاء والتأثير وغالبا ما يكون الالقاء بتلوين صوتي يناسب المواقف والشخصيات وبإشارات من اليدين والعينين والراس فيها قدرة من التمثيل والتقليد . ويتم التلقي بإصغاء حاد قد يتخلله الضحك او الفزع كما يقتضي الموقف ولكن في تقدير واحترام وتصديق واندھاش ومقاطعة ولكل حكاية اسم هو عنوانها ويستمد من عنصر بارز فيها من شخصيات او الحوادث وهو اسم ثابت .

ان الحكاية الشعبية تحمل في طياتها مفاهيم ثقافية محددة تحاول ترسيخها في ذهن المتلقي خاصة وأن هذه الحكاية قابلة للتأويل في معظمها . ان التأويل النقدي للحكاية يمنحنا الاحساس بإعادة انتاج المعنى الذي لا يفترض خلوه من اصلاته في الحاضر . ان المسافة الزمنية التي تفصلنا عن الماضي ليست فاصلا ميتا بل هي تحويل ابداعي للمعنى . ولذا تثار الأسئلة لمحاولة التعرف على المعنى .

(١) د . هاشم العقابي في معرض حديثة عن حكاية بنت المعيدي

(٢) د. يحيى البطاط ، بحث عن حكاية (بنت المعيدي) منشورات مركز علي الوردي للدراسات والبحوث . اغسطس ٢٠١٠

تحمل الحكاية الشعبية كما ترى (نبيلة ابراهيم) من الرموز الاشارية ما يمكن ان يستوعب حركة الفرد والمجتمع ، او لنقل حركة الفرد في اطار الحركة الدينامكية للمجتمع .^(١) (١)

لو تأملنا الحكايات الثلاثة الاولى ، لوجدنا انها تدور حول مفهوم الغدر وما يجر على صاحبه من سوء العاقبة. وهذا من المفاهيم الثقافية التي يسعى المجتمع الانساني لترسيخها بين افراده . والغاية منها هي الارتقاء بالتصرف الانساني والتأكيد على مبدأ الوحدة الإنسانية والتعاون على الخير ، وهو من الامور المحمودة . فضلاً عن اشارات مهمة في النصوص الحكائية ، والتي تشير الى نسق ثقافي متأصل في الحكايات وهو اعطاء المشروعية للملك بالحكم والتصرف السابق : ٩٢ - ٩٣.

بأرواح الرعية لأنه هو المالك لهذه الرعية ومن حقه ان يحكم فيها بما يشاء دون ان يعترض عليه احد . وهذه من الرواسب الثقافية التي ترسخت في الذهن البشري منذ القدم . واجد اصولاً لهذا المفهوم في حكايات العصر العباسي كما في قصص الف ليلة وليلة . والسبب فيما يبدو لي ان اصل هذه الحكايات كان يلقي على مسامع الملك في ليالي السمر . وبطبيعة الحال ان الراوي يريد ان يعظم من شأن الملك ، وفي الوقت نفسه يريد كسب رضاه ودنائه في ان واحد . من دون ان يخلد بذهن الراوي او المؤلف انه يؤسس للفكر الدكتاتوري الذي يمثله الانسان المتحضر . والغريب في هذا الشأن ان هذه القضية لم يتناولها احد من الباحثين بالتحقيق الدقيق المبني على اسس علمية صحيحة وقراءات للواقع الاجتماعي العربي قبل العصر الحديث . علماً ان مبدأ العدالة هو نسق فطري عند الانسان . وهذه مسألة خطيرة تعكس جزء من الواقع الاجتماعي العربي المتري والبعيد عن قيم العدالة الإنسانية . ويمكن ان نستشف من خلاله سبب تمسك الحكام العرب بالسلطة ، وقتالهم عليها ، وكثرة الانقلابات في الدول العربية . وان كان في العصر الحديث ظهرت عوامل ومتغيرات ساعدت على زيادة الوعي الثقافي والسياسي والاجتماعي خاصه بعد الاحتكاك المباشر مع الدول التي سبقتنا في تغيير النمط القديم في انظمة الحكم .

ومن الاشارات المهمة التي يمكن ان نتلمسها في اصول هذه الحكايات هي قضية الكنوز التي يجدها بطل الحكاية في كل مرة . واطن ان هذا الامر مرده الى الطموح الذي يختلج في صدر واضع الحكاية للخلاص من حيز الفقر الذي يقيد ويمنعه من ان يحقق تطلعاته وهذا الامر وجدناه في قصص الف ليلة وليلة . زيادةً على تقنع الراوي بقناع الحيوان ويتكلم على لسانه وكذلك الجان ، وهذا كله موجود في التراث العربي القديم .

ان هذه الحكايات تعود في معظمها الى ما يسمى في العصر الحديث ب (ادب الاطفال) وادب الاطفال يستمد من القصص التي احتفظت بها ذاكرة الزمن لتسهم بنصيب كبير في تراث البشرية وخبراتها من جيل الى جيل ، حيث كانت مادة الحياة سواء رويت للكبار او حكي للصغار ، ووسيلة لتقاسم الخبرة والتعليم ، ولوناً من ألوان الامتاع والمؤانسة ، وعاش ادب الاطفال عاله على التراث الادبي للكبار ، حيث لم يتفرد الاطفال بأدب خاص بهم ينشئه لهم فنانون يبدعون ، بل بسطت لهم حكايات الكبار من خرافات ، واساطير ، وحكايات الحيوان ، والجن ، وقصص التاريخ او الحرب والبطولات .. الى غير ذلك من القصص التي ابتكرها الانسان الكبير في تاريخه الطويل ، واتخذ منها مصادر يغترف منها المادة والصورة والخيال . كلما تطور التفكير الانساني وتطور فنه الادبي ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح جزءاً من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسيه للبشرية ، وسبيل الاجيال المتعاقبة لنقل الافكار والقيم الروحية والمثل ومستويات السلوك والتقاليد . وصارت حكايات الاطفال كالجداول ينساب في موازاة النهر العظيم من قصص الكبار ليستمد منه الحياة .

(١) انظر . د . نبيلة ابراهيم ، المصدر السابق : ٩٢ - ٩٣

فيما تقدم من الشرح انما ينطبق على الحكايات الخمس الاولى اما الحكاية السادسة فلها مغزى اخر . وهي من ابداعات الخيال القصصي في بداية القرن العشرين وتحديدًا بعد مضي مدة من الاحتلال الانكليزي للعراق . وهو يعكس نوع من الرفض الاجتماعي للمحتل . خاصه وأن الحكاية نجدها بعدة لغات ومنسوبة الى عدة اماكن في العراق . ولدي حدس في هذه القضية ، اجد انه لا مناص من ذكره هنا ، خلاصته ان هذه الحكاية يقف وراءها راو اجنبي وهو معادٍ للاحتلال الانكليزي للعراق لأنه يتعارض مع مصالحه السياسية والاقتصادية ، ويمكن ان نحدد هوية هذا المؤلف من خلال اختياره للصورة التي نجد فيها ملامح وهياة سيدة تركيه او من أوروبا الشرقية ، وهي كانت قد دخلت في حرب مع الانكليز من اجل السيطرة على العراق . ان هذه الحكاية كانت تترك اثراً عميقاً في نفس العراقيين ، وتزيد من حنقهم على المحتل . وهذا ما كان يبتغيه المؤلف المجهول الهوية .

بالعودة الى الحكاية الخامسة والتي نوهت في مطلعها عن النسق الثقافي الخطير الذي تؤسس له هذه الحكاية . واكرر هنا قلبي حول هذا الموضوع . حيث ان هذه القضية بحاجة الى وقفة تأمل ومراجعة لأثر الحكايات الشعبية في البناء النفسي للمجتمع . وذلك لان الظروف التي يمر بها بطل الحكاية مشابهة في كثير من الاحيان بالظروف التي تمر على كثير من افراد المجتمع . والخطورة تكمن في مسالة تقمص الشخصية الحكائي من لدن بعض افراد المجتمع ، لان الشخصية الحكائية كانت قد رسخت في ذهن المتلقي ، وهي تظهر في اللاوعي الفردي عند الانسان ، وربما تبرز كذلك في اللاوعي الجمعي ، كما في حالات النهب الكبرى التي شهدتها مجتمعاتنا . على اقل من تقدير كما حصل ويحصل في العصر الراهن .

من القضايا الاخرى التي نجدها في هذه الحكايات وهي النهاية السعيدة لبطل الحكاية وهو اسلوب دأبت عليه القصص التراثية والسير الشعبية كما في سيرة الملك سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد وكثير من حكايات الف ليلة وليلة .^(١)

خلاصة القول انه لا يوجد مجتمع من المجتمعات الإنسانية على وجه الارض الا وله تراثه الادبي من الحكى الشعبي في اشكاله المختلفة ، الاسطورة ، الملحمة ، السيرة ، الحكاية الشعبية ، والمثل ، فقد عرفت المجتمعات الإنسانية كلها " السرد القصصي " منذ فجر التاريخ وظل هذا الشكل من اشكال التعبير ملازماً لتطور هذه المجتمعات بلا توقف او فتور ، يتطور بتطورها ليلئم احتياجاتها المعرفية - لمعرفة ما يدور حولها وتحاول ان تفسره من خلال مخيلتها وفكرها البدائيين ، او التعليمية بما تلقنه لأجيال متعاقبة من تقاليد، وحكم من خلال معاشتها للحياة على مر العصور ، ومن هنا كان التنوع والثراء في اشكال الحكى الشعبي .

قطين ، ذخيره العجائب العربية (سيرة سيف بن ذي يزن): ٤١

مما تقدم ممكن ان نحدد مميزات الحكاية الشعبية :

- ١ - الإضافة والحذف وفاقاً لذاكرة الراوي واهوائه احياناً
- ٢ - الحكاية مرآة العصر تبين افكار الامم وعاداتها ينتابها التحوير مع المتغيرات والا سقطت .^(٢)
- ٣ - لا تستقر الحكاية في مكان واحد بل تنتقل بانتقال الراوي
- ٤ - الرواية الشفهية
- ٥ - مؤلفها مجهول

^(١) انظر سعيد قطين ، ذخيره العجائب العربية (سيرة سيف بن ذي يزن): ٤١

^(٢) انظر عمر محمد الطالب ، اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية : ٦

- ٦- تدور حول اشخاص ابتدعهم الخيال واحيانا حول شخصيات تراثية لكنها تُغيّر في الحكاية بواسطة الخيال الشعبي الى صور خيالية ومتوهمة كما في شخصية سيف بن ذي يزن او عنتره او الاميرة ذات الهمة .^(١)
- ٧ - هدفها اخلاقي مثل تأصيل القيم والعادات الاجتماعية وإيجاد الحلول المستعصية او فتح افاق للخروج من الازمات .
- ٨ - اللغة بسيطة عامية او فصيحة ونشدد على الفصيحة لكن هذا لا يعني خلوها من البلاغة.
- ٩ - لا تخرج عادة عما هو سائد في المجتمع
- ١٠ - الذبوع والانتشار عند العامة والخاصة ايضا
- ١١ - احيانا تتشابه في جميع انحاء العالم كما في قصة السندرا
- ١٢ - ما يميز الحكاية فكرة الحرية لا قوانين ولاقريب على الاضافات ، التخلص من محدودية الزمان والمكان
- ١٣ - المحتوى مستمر التجدد اي ما يتعلق بأغراض المستمرة تعكس موقفا جمعي لا يختلف الاطفال مثلا حين يستمعون الى الحكايات في مواقفهم يتعاطفون مع الشخصية نفسها ويكرهون الشخصية نفسها.
- ١٤ - الطرف التاريخي والجغرافي والاقتصادي يلعب دورا في انتاج الحكايات بين النفعية والجمالية النفعية والجمالية الخالصة . ففي ازمة الغروب السياسي وتراجع السلطة وضعفها شاعت حكايات الشطار واللصوص ، وفي ازمة النكوص القومي وانحسار الحكم الوطني ، برزت حكايات البطولة التي تسترجع صور الابطال والشخصيات العربية القادرة على حشد المشاعر واستنكار الماضي .^(٢)
- ١٥ - ينتهي عمر الحكاية حينما تصبح منافية لعقائد الشعب وإيديولوجيته ان لم تتطور او تُحوّر.

الخاتمة

التراث الشعبي العربي والعراقي منه خصوصا ، كونه موضوع البحث ، يتمتع بالأصالة بشكله ومضمونه ، وانه اقرب الاشياء الى نفس الانسان ولاسيما الاطفال منهم . كما انه تراث لكثير من الاحداث والحركات والانفعالات فضلاً عن امتلاكه خطا دراميا لا مثيل له ، خطا يأسر القلوب ويشد الانفس ويواصل الانجذاب . ولذا فقد شهدت الساحة الثقافية في العراق في اواخر القرن الماضي محاولات كثيرة وجادة لجمع التراث الشعبي العراقي وتدوينه وربما لا عادة صياغته وتقديمه بشكل اكثر عقلانية وتوافقا مع عقلية الطفل وقابليته على التقبل والقناعة . ولاسيما ان بعض هذه الحكايات الشعبية تعد فيما اذا شذبت وهذبت دروسا تربوية ذات مدلول ومغزى يتوافقان كليا مع متطلبات العصر الذي نعيش فيه ، وان اي عمل من هذه الاعمال يحتاج الى كثير من الجهد والاهتمام والحذر ، فان الحكاية الشعبية في نصها الاصلي ربما ، تحتوي على عناصر سيئة وهذه اذا تركت من غير اصلاح او تهذيب واشراف عليها ربما كانت عاملا سيئا في تربية الطفل ، لان المعلومات والحوادث التي تتضمنها هذه القصص تؤثر في تكوين الطفل العقلي والخلقي وفي ذوقه وخياله . وحري بنا كباحثين في الادب العربي ، ان نمتلك الماما ووعيا بعلم النفس التربوي وننظر فيما يقدم ، لان اية معلومة يتقبلها الطفل من الصعوبة بمكان ان تزال من ذهنه بسهولة .

هنا تكمن اهمية الآباء والمربين الشديد من ما تقدم الى الطفل من حكايات شعبية غير منقحة ، لان في ذلك اضرارا كبيرة وخطورة تؤثر بشكل وباخر في نفسيته وسلوكه ، ولذا يرى بعض الباحثين بان الثقافة التي

(٢) انظر عبد الله ابراهيم ، السردية العربية : ١٥٤

(٣) انظر قيس كاظم الجنابي ، الحكاية التراثية تنوع الافكار ووحدة التأثير : ١٣ - ١٤

يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشئ على علاتها لهذا تكون مهمة العطاء حرجة وخطرة في الوقت نفسه .. فقد تتدخل احداث الحكايات وابطالها تدخلا سلبيا في سلوكه وتوجهه التربوي .

هذه بعض الموضوعات التي حاولت ابرازها في هذا البحث . وقد اشترت في المبحث الثاني الى الاصل الثقافي للحكايات الشعبية . والنسق الثقافي الذي نستخلصه من هذه الحكايات وكذلك البنية الثقافية التي تتأصل بسببها ، وكنت قد تناولت في المبحث الاول سبعة حكايات متنوعة ، وهي من الحكايات المتداولة في الادب الشعبي العراقي . وتحمل مفاهيم مختلفة . وخصص الحكاية السابعة بالذكر كونها من ابداعات القرن العشرين والتي اظن بان وراءها مؤلف تركي .

اخيرا ارجو ان اكون قد وفقت في اخراج هذا البحث المختصر بشكل حسن . ومن الله تعالى التوفيق .

المصادر:

- ١ - ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، ط٢ ، طهران ، ١٤٢٧ هـ
- ٢ - سعيد يقطين ، ذخيرة العجائب العربية (سيرة سيف بن ذي يزن) ، ط١ ، ١٩٩٤ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت - لبنان .
- ٣ - عبد الجبار محمود السامرائي ، مجلة التراث الشعبي ، كانون الاول ، ١٩٧٠م
- ٤ - عبد الله ابراهيم ، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي) ، ط٢
- ٥ - عمر محمد الطالب ، اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية ، دار الجاحظ للنشر ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨١م
- ٦ - قيس كاظم الجنابي ، الحكاية التراثية - تنوع الافكار ووحدة التأثير - دار الشؤون الثقافية ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٦م
- ٧ - كاظم سعد الدين ، الحكاية الشعبية العراقية (دراسة ونصوص) ، بغداد ، دار الرشيد للنشر ، ط١ ، ١٩٧٩م
- ٨ - كاظم سعد الدين ، معالم مضيئة من التراث الشعبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٨م
- ٩ - نبيلة ابراهيم ، اشكال التعبير في الادب الشعبي ، القاهرة ، ط١ .
- ١٠ - هاشم العقابي ، الموقع الالكتروني لمركز علي الوردي للدراسات والبحوث .
- ١١ - وداد حسين ، حكايات شعبية من العراق ، دار الفتى العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٨
- ١٢ - يحيى البطاط ، بحث عن حكاية (بنت المعيدي) الموقع الالكتروني لمركز علي الوردي للدراسات والبحوث ، اغسطس ٢٠١٠م